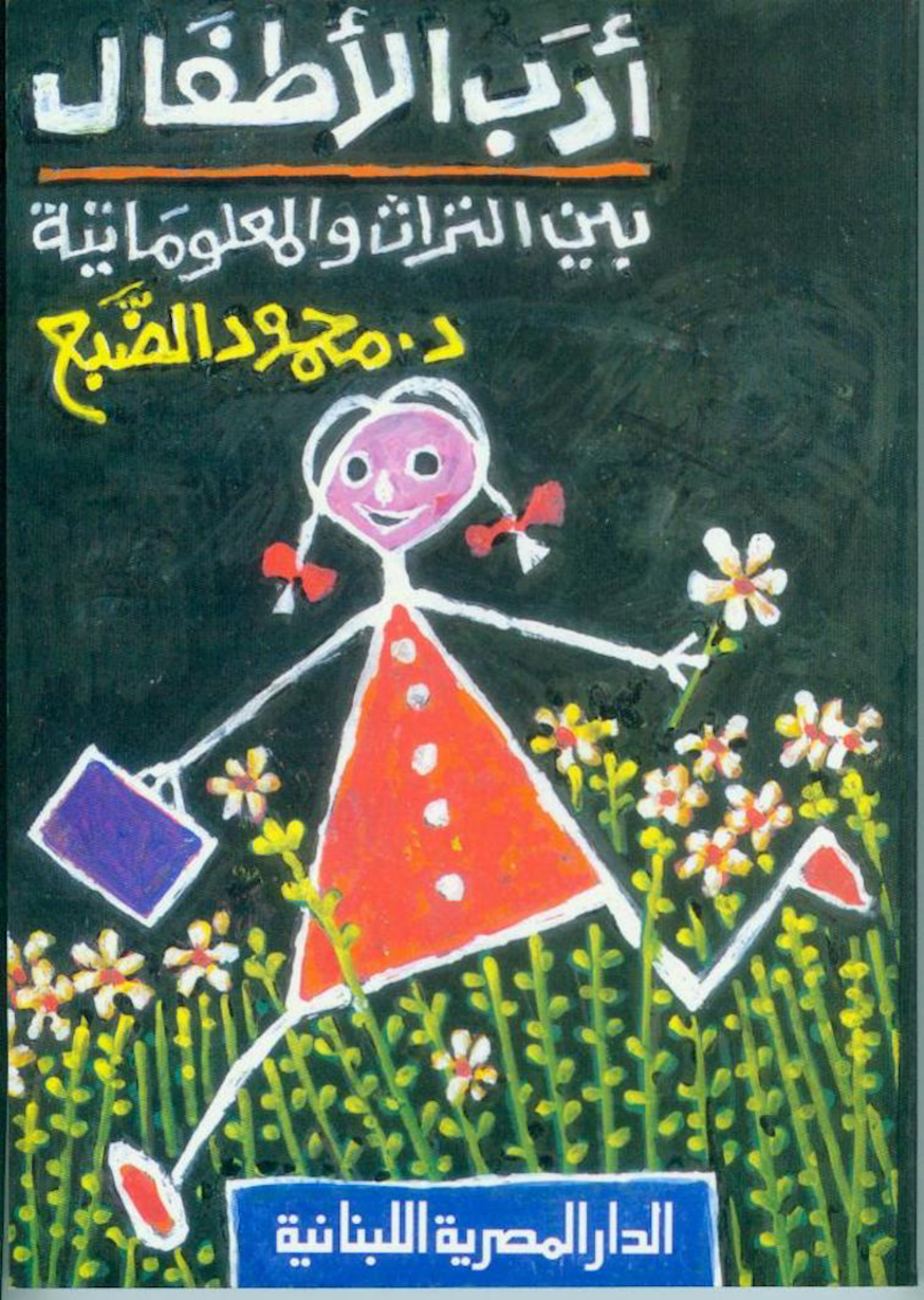

أدب الأطفال
بين التراث والمعلوماتية
د. محمود الضبع
الدار المصرية اللبنانية

الضبع ، محمود.
أدب الأطفال بين التراث والمعلوماتية / محمود الضبع .ـ ط1.ـ
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009.
272 ص ؛ 24 سم .
تدمك : 2 ـ 479 ـ 427 ـ 977
1 ـ أدب الأطفال
أ ـ العنوان 810.909

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع : 7305 / 2009

الطبعة الأولى : ربيع أول 1430هـ ـ مارس 2009م

أدب الأطفال

بين التراث والمعلوماتية

د. محمود الضبع

الدار المصرية اللبنانية

المحتويات

على سبيل التقديم :

الأطفال مفكرون يمتلكون أدوات الفكر الرئيسة ، من طرح الأسئلة ، إلى البحث عن أجوبة ، إلى تحليل المواقف ، إلى تكوين أفكار .

والأطفال متطورون يعدِّلون من سلوكياتهم تبعا لخبراتهم ، ويخزِّنون معارفهم فتتشكل الأسس المفاهيمية والبِنَى الأساسية المكونة للثقافة .

والأطفال مبدعون يتعاملون مع الكون من حولهم بخيالاتهم ، ويرون الأشياء من داخلها ، ويرسمون السيناريوهات لأحداث مستحيلة إلا من وجهة نظرهم المبررة فنيا.

والأطفال يمتلكون كثيرا من المواهب والذكاءات المهيأة تماما لأن تنمو أو تموت .

إن بداخل كل منا طفلا ، يداعب خيالنا ، ونتواصل من خلاله مع الكون من حولنا، ومع الآخرين ، ومع المعاني الجميلة والمشاعر الإنسانية بعامة ، فعلى الرغم من تحديد مرحلة الطفولة علميا بين الميلاد وحتى الثانية عشرة ، فإنها داخليا لاتنتهي عند هذه السن، ولكنها تستمر كامنة في الأعماق بدليل أننا نظل نعشق ألعاب الأطفال ، وقصص الأطفال ، وأغنيات الأطفال ، ويظل يراودنا دائما حلم العودة إلى الطفولة.

وما تعايشه مخيلة الطفل لا يغيب عن البال ، مهما طال به الزمن ، ومهما تباعدت به الذكريات ، فقليل منا هم أولئك الذين ينفصلون عن طفولتهم ، وهم في الغالب الأعم يفعلون ذلك تناسيا لأسباب علاجية ، وليس نسيانا.

والطفولة في مراحلها السِّنيَّة التي حددها علم النفس ، تعد أهم المراحل الإنسانية في تشكيل الوعي الإنساني ، وفي توجيه العقل إلى الاتجاهات الإيجابية والفاعلة أو العكس ، وكما راهن فرويد على إمكانات البشر في تحديد مسارات الأطفال وتخصصاتهم العلمية المستقبلية ، بل وعلى إمكانية صناعة العباقرة (genius) والتحكم فيهم منذ الصغر .

ونظرا لأهمية هذه المرحلة ، فإنها قد شغلت بال علماء النفس والفلاسفة والأدباء على حد سواء ، واتفق الجميع منهم على دور الأدب والقص والغناء والفنون عموما في تنمية مهارات الأطفال ، وتشكيل وعيهم الجمالي ، وتهيئة عقولهم ، وتنمية أخيلتهم، وتنمية ذكاءاتهم .

إن الأدب يعد أحد أهم المداخل الأساسية لتكوين الوعي الثقافي ، وتنمية المهارات العقلية العليا ، وبناء الهوية لأي مجتمع ، خاصة في عصرنا الحالي الذي تعد المعلوماتية أحد أهم مرتكزاته ، ومعيارا من معايير القوة فيه .

وقد استطاع أدب الأطفال أن يقوم بدوره الفاعل عبر تاريخ الأدب العربي الشفاهي والكتابي ، غير أن التحولات التي طرأت على مفاهيم الثقافة والتثقيف ، وعلى الأدوات والوسائط ، وعلى الحضارة ذاتها وطبيعة تشكلها التي ارتبطت بالإنتاج والتطور التكنولوجي والمعلوماتية ومعطياتها التي غيرت من طبيعة المجتمعات البشرية نفسها ، كل ذلك يقتضي إعادة المراجعة في نظرتنا إلى الأطفال، وفي طبيعة تَشَكُّلِ لغتهم وثقافتهم ، وفي أشكال الأدب المناسبة لهم الآن ، والوسائط التي يمكن تقديمه عبرها .

من هنا يأتي هذا الكتاب للوقوف على أهم ملامح الأدب العربي التي اهتمت بالطفل ، وإمكانات توظيف هذا الأدب بفنونه المختلفة في تربية وتنشئة الأطفال ، وتنمية قدراتهم العقلية ، وتكوين ميولهم وتنمية اتجاهاتهم ، والتأكيد على القيم المرغوب فيها لديهم .

والله هو المبتغى ...

د. محمود الضبع – القاهرة ٢٠٠٩م

الفصل الأول : لغة الطفل

الفصل الأول : لغة الطفل

هل للطفل لغة أخرى مختلفة عن لغتنا نحن الكبار؟ وهـل يختلـف وعيـه إذا خرجـت هذه اللغة عن حدود المألوف بالنسبة له ؟ أليس من الأجدى أن يتم التعامـل مـع الطفـل باللغة المعيارية السائدة ليتمكن من اكتسابها بوصفها الأبقى ، والأكثر تداولا في المجتمع؟ أم الأجدى مسايرة الطفل في استخدامه للغة أخذا بيده نحو اللغة المعيارية ؟ ومـاذا لـو لم تكن هناك لغة معيارية سائدة في المجتمـع ، وإنـما كانـت هنـاك لهجـات متعـددة تختلـف باختلاف البيئة والموقع الجغرافي ؟

لعل هذه الأسئلة وغيرها كثير تشغل بال المعنيين بالأمر[١] ، والمهتمين بمستقبل الأطفال وثقافتهم ؛ إذ لاشك في أن اللغة مكون أساس من مكونات الهوية ، وعامل أول في تكوين شخصية الفرد ، بوصفها المحك والمعيار والحضـارة والبقـاء ، وبوصـفها قبـل كـل ذلـك المترجم الأساسي للرموز والأفكار المجردة إلى معانى وكلمات مفهومة ومعبرة ، وبوصفها الأداة الأولى للتواصل بين البشر ، وبوصفها أخيرا سرا من أسرار بقاء الإنسان، فمن دون اللغة تنمحي الذاكرة ، ومن دون اللغة لايتبقى من تراث البشرية شيء يذكر.

كذلك تعد اللغة أحد أهم العوامل في تشكيل وتشكل ذكاء الإنسان وقدراته العقلية ، فعلى قدر وضوح اللغة في ذهن الإنسان وامتلاكه لها ، يكون التمكن من الأفكار والقـدرة على صياغتها صياغة سليمة ، وعلى قدر وضوح اللغة على قدر ما يتمكن الإنسان من سبر أغوار ودقائق العقل والتوصل إلى المعاني البعيدة والمجردة، ومن ثـم القـدرة عـلى تحديـد مفاهيم لايتمكن من لايمتلك الذكاء اللغوي خاصة من التوصل إليها .

---

١ – المعنيين بالأمر ، هم كل المهتمين بالأطفال: الآباء والأمهات ، والمعلمون ، وكتاب أدب الأطفال القصاصون والشعراء ، والمهتمون ببرامج الأطفال التعليمية والتليفزيونية والإذاعية ، وغيرهم ممن سيعنيهم موضوع الأطفال واللغة المستخدمة معهم .

من هنا فإن الاهتمام ببناء نسق لغوي سليم في عقلية الأطفال تتزايد أهميته ، وهو الأمر الذي أصبح الآن في الإمكان القيام به مع تطور أبحاث المخ والذكاء ، وما توصلت إليه علوم النفس وأبحاث الطب التشريحية من نتائج في إطار دراسة الأطفال وتشكل وعيهم. وتزداد أهمية تشكيل اللغة الأم في عقل الأطفال في ظل ما يواجه العالم أجمع من تدفق معلوماتي وثورة معلوماتية تمثل اللغة فيها مكونا أساسيا من مكونات صياغة المعلوماتية وبثها وترويجها وصناعة المعلومات بعامة ؛ إذ من المعروف أن مجتمع المعرفة الذي تتبدى الكثير من ملامحه اليوم، تتشكل أبعاده انطلاقاً من معطيات مجالات علمية ثلاثة هي البيولوجيا الجزيئية والمعلوماتية وعلم اللغة، والتي تجتمع ثلاثتها على إعادة تشكيل مفاهيم الهوية وملامح الحضارة البشرية بعامة ، وهو ما بدأت تطبيقاته بالفعل .

والسؤال الأهم : هل يمكن تنمية مهارات اللغة لدى الأطفال ؟ أو بالأحرى : هل في الإمكان تنمية الذكاء اللغوي ؟

ومما لاشك فيه أنه في الإمكان تنمية أي مهارة لدى البشر كبارا وصغارا ، ولكن فقط إذا عرفنا كيف تتشكل هذه المهارة ، وكيف تعمل داخل المخ البشري ، وهو الأمر الذي أصبح في الإمكان الإجابة عنه استنادا إلى معطيات العلوم المتنوعة التي تهتم بدراسة الأطفال ، مثل دراسة النمو اللغوي للطفل ، وكيف يفكر الطفل ، والأبعاد الثقافية للأطفال ، وغيرها من الموضوعات المعينة في ذلك .

النمو اللغوي عند الطفل :

يتشكل القاموس اللغوي للطفل منذ العام الأول[٢] ، ولكنه يشهد طفرة على مستوى النمو في العام الثاني ، حيث يستخدم الطفل ما يزيد عن ثلاثين كلمة وما ينتج عنها من اشتقاقات ، ويتمكن في هذه السن من تركيب الكلمات والربط بينها لتكوين جمل بسيطة، وإن كان يميل إلى استخدام المعاني والأسماء أكثر من استخدام الأفعال .

وهناك بعض الدراسات المتعلقة بعلم نفس الطفولة تؤكد أن البنات يتفوقن على الأولاد في نمو القاموس اللغوي ، وفي عدد المفردات اللغوية المستخدمة ، ولكن مع الوضع في الاعتبار أن الجهاز اللغوي مثله مثل بقية الأجهزة يحتاج إلى استثارة وتنمية وتدريب لكي ينمو نموا طبيعيا ، تماما مثل التدريب على المشي ، والتدريب على الحركة ، وهو ما يتطلب من الآباء والمحيطين محادثة الطفل ومخاطبته بمفرداته التي اكتسبها بالفعل وبمفردات جديدة تضاف إلى قاموسه اللغوي ، وتعمل على تنمية حصيلته اللغوية ، ولكن دون محاولات لتبسيط الكلمات كما يحدث أحيانا .

وبعد العام الثاني ينمو المعجم اللغوي للطفل على نحو سريع جدا ، حتى إذا ما بلغ الرابعة من عمره أصبح في إمكانه استعمال ألف كلمة ، فإذا ما بلغ السادسة تكون قد تشكلت لديه حصيلة من المفردات تصل إلى ٢٥٠٠ كلمة مختلفة.

---

[٢] – مع الوضع في الاعتبار أن الأبحاث الطبية أثبتت أن استعداد الطفل لاكتساب اللغة يبدأ قبل مولده ، حيث ينمو الجهاز السمعي للجنين بعد عشرين أسبوعا من الحركة ، وهنا يستطيع الطفل أن يستقبل الأصوات التي تتسرب له من خلال السائل الأمنيوسي. وتكون هذه الأصوات المصفاة تنشيطا سمعيا مبكرا له . وابتداء من الشهر السادس تتطور معالجته لهذه الأصوات إلى استقبال خصائص صوت أمه ومن ثم اللغة التي تتعامل بها . كذلك يبدأ إحساسه بالموسيقى ، وخلال الثلاثة أشهر السابقة للولادة يكون الجنين مهتما بالاستماع إلى أصوات اللغة من أمه .

ومن اللافت للنظر أن المشكلات اللغوية والعقلية تنشأ في هـذه المرحلـة مـن العمـر نتيجة لعدم استثارة دافعية الطفل وتنمية جهازه اللغوي ، وهو ما يـرتبط عـلى نحـو كبـير بتنمية قدراته العقلية وإطلاق العنان لخياله بشكل عام ، وهنا تأتي الحاجة إلى أهمية الحكي والقص والغناء للأطفال ، فعلى سبيل المثال يعاني بعض الأطفال بانتهاء هذه المرحلـة مـن خجل وتهتهة وعدم قدرة على التعبير عن النفس ، ويكون السبب في الغالـب الأعـم هـو عدم مرور الطفل بخبرات لغوية من خـلال الحكايـات والقصـص التـي تنمـي الخيـال ، وتربط بين الرموز والأشكال والمفردات ومسمياتها ، والواقع المعيش والواقع المتخيل .

وباختصار فإن الأدب يتكفل بحل كل المشـكلات اللغويـة والعقليـة التـي يمكـن أن يتعرض لها الطفل ، ولكن بشرط أن يكون هناك وعي بمراحل الطفولة وسـماتها النفسـية والحركية ، ومعرفة أنواع القصص والأغاني والفنون الأدبية المناسبة لكـل مرحلـة سـنية ، والتي تعمل بدقة على بنائه بناءا عقليا سليما ، فمثلا الطفل في السنة الثانية من عمره يحتاج إلى قصص تتناول أشياء وعناصر من بيئته المحيطة ، ولكنها لاتخضع للمنطق العقلي للبشر ، فالعصا يمكن لها أن تطير ، والشجرة يمكن لهـا أن تـتكلم ، والعصـفورة يمكـن لهـا أن تشاركه اللعب ويخاصمها وتصالحه ، على حـين يتغـير الاحتيـاج مـع الـدخول في السـنة الرابعة مما يقتضي تغيير نوعية القصص، وهكذا الأمر مع بقية الفنون وبقية المراحل .

وقد حدد علم نفس الطفولة عوامل تسهم في التطور اللغوي للطفـل ، وتسـاعد عـلى نموه في مرحلة ما قبل المدرسة ، وهي العامـل البـدني ومـا يمتلكـه الطفـل مـن مهـارات حركية وقدرات ومدى سلامة جهاز النطق بيولوجيا لديه ، والعامل الاجتماعـي وقدرتـه على التواصل مع الآخرين والتعبير عن احتياجاته وإقباله على الحياة والشعور بالأسرة وما يرتبط بذلك من مشاعر، والعامل العقلي وما يمتلكه الطفـل مـن قـدرات عقليـة خارقـة تتجاوز حدود الزمان والمكان والمنطق ، وما يشغل اهتمام الأطفال من العالم المحيط بهـم ،

وميلهم الشديد إلى القصص والحكايات بل سرد أحداث حياتهم في شكل قصة يهتمون فيها اهتماما شديدا بالتفاصيل التي قد تصل عند الكبار إلى درجة الملل ، حيث يهتم الأطفال بوصف الأشياء وصفا دقيقا ، في حين يتحول هذا الاهتمام بعد سن السادسة إلى البحث عن الأسباب وراء حدوث الأشياء ، وكيفية حدوثها ، كما يلح الأطفال على ذويهم والمقربين إليهم في طلب حكي حكايات وقصص ، وهو ما يفسر حب الأطفال للجد والجدة في هذه المرحلة ؛ لأنهم يمتلكون قدرة ومهارة وصبرا على الحكي بتفاصيل التفاصيل ، الأمر الذي يمتع الأطفال ويجعلهم في حالة استثارة شديدة ودافعية عالية نحو اكتساب اللغة وتطورها على نحو مستمر .

إن هذه الأمور جميعها عوامل تسهم في التطور اللغوي للطفل ، إذا ما تم تغذيتها على نحو سليم ومستمر ، مما يجعل التربية معه فعلا بنائيا ومسؤولية الجميع قبل أن تكون مسؤولية المؤسسات التعليمية ، أو الجهات الحكومية ، وهو ما فطنت إليه ثقافات العوالم المتقدمة ، وأولت أهمية إلى الأطفال وأدب الأطفال ودور الأسرة في إكساب المفاهيم السليمة والتنشئة الإيجابية .

اللغة الأم واللغات الأخرى:

هل هناك خطر من تعليم لغة أخرى للأطفال إضافة إلى اللغة الأم ؟ ومتى يمكن البدء في تعليم لغة ثانية بحيث لاتحدث تأثيرا سلبيا على اللغة الأم ؟

لقد ساد الاعتقاد لسنوات طوال أن تعليم لغة أخرى للأطفال في سن مبكرة يؤثر سلبا على اكتسابهم مهارات اللغة الأم ، غير أن الدراسات التشريحية للمخ أثبتت أن تعليم الأطفال لغة ثانيه إلى جانب اللغة الأم يعمل على تحفيز واستثارة دافعيتهم ، ويزيد من إمكاناتهم العقلية ، حيث يكون المخ أكثر استعدادا لتلقي لغة ثانية في سن مبكرة ؛ إذ يمر المخ بفترة حرجة للنصف الأيسر منه تكون حينها على أتم استعداد لاكتساب اللغة ، وبعد

انتهاء هذه الفترة تبدأ الصعوبة في تعلم اللغات ، وبخاصة بعد سن العاشرة التي مهما تعلم فيها الطفل من لغات ثانية فإن درجة إجادته لها لاتماثل على الإطلاق من سبقه في تعلمها .

ومن هنا فإن أفضل المراحل التي يمكن تنمية المهارات اللغوية لدى الأطفال وتعليمهم أكثر من لغة تبدأ منذ استطاعتهم القدرة على التعبير عن أنفسهم بلغتهم الأم واكتساب بعض مهاراتها الأساسية المتعلقة بالاستماع والتحدث بدءا من سن الثانية والثالثة[٣] ، ذلك أن الأطفال في هذه السن المبكرة يمتلكون ذاكرة لاحدود لها وقدرات عالية على حفظ الكلمات وتحليل القواعد اللغوية والقياس اللغوي غير المرتبط بالتقعيد النحوي المتفق عليه لدى الكبار ، وتكفي هنا الإشارة إلى مراقبة أبنائنا في ابتكارهم لتراكيب وأبنية لغوية وبخاصة في السنة الثانية والثالثة ، وبخاصة في الجموع ، وبالأحرى جمع التكسير مثل استخدام : أنفذ جمعا لنافذة ، وكبيرين جمعا لكبير ، وشريرين جمعا لشرير ، وسكمات جمعا لسمكة ، وقماصين جمعا لقميص ، وغيرها من المفردات والتراكيب التي لاحصر لها والتي نستنكرها وليست لدينا علة صرفية سوى أنها لم تسمع عن العرب ، علما بأن ما سمع عن العرب يمثل أقل القليل ، بل أحيانا لم يكن الأشهر ، إضافة لأن معيار القرآن الكريم فيما تنص عليه القواعد ليس هو المعيار الوحيد ، بدليل أن كثيرا من التراكيب التي تخالف القاعدة في القرآن الكريم لم يجد مقعدو الصرف فيها سوى الحكم عليها بأنها أسلوب قرآني كريم شاذ ولايقاس عليه .

[٣] - يمكن العودة في ذلك إلى يورجن مايزل ، ودوجلاس براون ، ومحمد زياد حمدان ، والدراسات التي أجراها بيل ولامبرت في مونتريال بكندا ، ودراسة بيسا لتقييم نظام التعليم وتعلم اللغات في عدد من دول العالم وغيرها من الدراسات والبحوث في هذا الشأن ، والتي نشطت في الربع الأخير من القرن الماضي، ولم تزل مستمرة وبخاصة مع تطور أبحاث المخ والكشف عن المراكز المخية المختصة بتعليم وتعلم اللغات .

اللغة والتفكير:

هناك صلة وثقى بين اللغة والتفكير، حيث ويتوقف التفكير إلى حد كبير على الصـورة اللفظية البصرية والسمعية، وكذلك على ما يفكر فيه الإنسان بداخله ويترجمه إلى مفردات ورموز قابلة لأن تفهم لغويا ، وهو ما يشير لأهمية اللغـة ودورهـا في عمليـات التفكـير ، والسير به في مساره الصحيح .

وفي هذا الصدد تتردد مقولات يعرفها الجميع ، وتنص عليها كتب تعليم وتعلم اللغة، غير أنها تحتاج إلى وقفة تأملية لإدراك ما تحمله من دلالات ، وذلك مثل التعامل مع اللغـة بوصفها " نسقا من الرموز والدلالات " و" اللغة وعاء التفكـير " و "اللغـة هـي وسـيلة تمثيل الأفكار " و " اللغة نظام " و " اللغة سياق " ، وغيرها من المقولات التي تمثل نتـاج جهود بحثية وعلمية أفرزتها حقول علمية متنوعة .

والمعول عليه هنا هو الربط بين هذه المقولات وبين طبيعة التفكير عند الطفـل ، فمـثلا عند النظر إلى اللغة بوصفها نسقا من الرموز والدلالات ، تكمن هنـا عـدة أسـئلة حـول الربط بين الرمز والمعنى (بين الدال والمدلول) ، فإذا كنا نحن الكبار نرتكز عـلى خبراتنـا ومعرفتنا السابقة بالدال أوالمدلول ، فإن الأطفال نظرا لعدم وجود خـبرات كافيـة لـديهم بحكم طبيعة نموهم ، فإنهم يفتقدون إلى عنصر من عنصري هذه العملية على أقل تقدير ، فمثلا قد يطلق أمامهم لفظ (مفردة/ دال) ولكنهم يفتقدون إلى الصورة العقلية عما يشير إليه (المدلول) .

وفي كلتا الحالتين ، فإن الأمر يقتضي عملية عقليـة قـد تتطلـب مهـارات تفكـير عليـا للبحث عن تكوين صورة للمدلول ، أو عن تكوين صورة عن الدال ، أو في الربط بيـنهما على نحو ما ، وهو ما يمكن أن يحـدث الخلـط المفـاهيمي لـديهم في مرحلـة مـن المراحـل المتقدمة في هذه العملية .

وكذلك عند النظر إلى اللغة بوصفها نظاما ، فإن من طبيعة هذا النظام في اللغة أنه يتسع ليشمل طريقة ترتيب الحروف، وتوالي الأصوات وتركيب الجمل ، ذلك أنه لا يعني قواعدها النحوية فحسب، بل يعني مختلف القواعد التي تنظم العلاقة بين المكونات المختلفة للغة؛ أصواتًا وحروفا ومفردات وتراكيب. وهو ما يتطلب في تنميته وتعليمه الاعتماد على النماذج اللغوية الرفيعة والمشوقة في آن ، مثل القصص والشعر والمقطوعات الأدبية ، التي تؤسس لهذا النظام ، وتؤكد عليه بطرق غير مباشرة وغير تقليدية ، تماشيا مع التدرج المنطقي للتفكير من المحسوس إلى المرموز، ومن الملموس إلى المجرد ، وهكذا .

ومن جهة أخرى فإن اللغة هي التفكير ، وعلى قدر وضوح اللغة في ذهن الإنسان بعامة على قدر امتلاكه لمهارات التفكير ، وعلى قدر تمكنه من تمثيل أفكاره والتعبير عنها ، ومن المعروف أنه كلما زاد المعجم اللغوي ، وامتلك الإنسان مفردات لغوية تسمح له بالتعبير عن كل ما يفكر فيه ، بقدر ما كان هناك ثراء في الأفكار ، وقدرة على التعبير عنها .. إن النمو العقلي والفكري يرتبط ارتباطا شديدا بنمو المعجم اللغوي ، وثرائه ، وتنوع مفرداته ، وعلى قدر ضحالة هذا المعجم اللغوي على قدر ضحالة الأفكار وسطحيتها ، وهو ما يزيد من خطورة التعامل مع الأطفال في مجال تعليم وتعلم اللغة ، وأهمية الاهتمام بهم وتنمية التفكير لديهم من منطلق اللغة وثرائها وأساليب بنائها في نماذج لغوية رفيعة .

وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقة بين اللغة والعلم ، فمن المعروف أن لكل علم لغته، بدءا من أولياته وانتهاء بمستوياته التعقيدية ، فمثلا علم الرياضيات له لغته ورموزه التي يستحيل فهم شيء منها ما لم يكن هناك وعي بهذه الرموز وعلم بدلالاتها ، وكذلك علوم الفيزياء والكيمياء ، والعلوم الإنسانية ، وإلا ما ظهرت التخصصات الرئيسة في كل حقل من حقول المعرفة ، بل والتخصصات الدقيقة داخل العلم الواحد ، ومنها على سبيل المثال الرياضيات البحتة والرياضيات التطبيقية والرياضيات الكمية ، والهندسة والهندسة

الفراغية والهندسة وحساب المثلثات ، وهكذا مما يدل على خصوصـية اللغـة في كـل علـم وفي كل فرع .

وهذا التخصص يعود في جزء كبير منه إلى لغة هذا العلم ، وهي المفتاح الأول للتفكير في هذا العلم وبه ، وما يترتب على ذلـك مـن إمكانـات تطـويره أو حتـى مجـرد اكتسـاب مهاراته ، وهنا تكتسب اللغة أهميتها ليس فقط بوصفها لغة منطوقة أو محكيـة وإنـما أيضـا بوصفها لغة مرموزة تخصصية يقتضي الأمر إكساب مفرداتها ودلالاتها للأفراد المتعـاملين بها ، ولمن يعقد عليهم العزم والأمل في أن يتخصصوا فيها .

وهذا جميعه يوجه الانتباه نحو أهمية تعليم الأطفال بعض مفـردات ودلالات العلـوم المختلفـة المحيطـة بهـم ، والمرتبطـة بحيـاتهم مـن فضـاء وسـماء وأرض وبحـار وأنهـار وحضارات وعلوم ورياضيات ووظائف أعضاء ، وغيره مما يمكن تقديمه عـبر القصـص والحكايات والألعاب والأنشطة والأغاني والأناشيد التي تستطيع توظيف العلوم السابقة باستخدام لغتها العلمية في سياق أدبي ، وما أكثر تلك الإصدارات الأدبية المعـاصرة التـي تناولت ذلك .

اللغة والتذوق عند الأطفال:

التذوق يعني القدرة على امتلاك الأحاسيس والمشاعر التي تسمح بالتمييز بـين الجيـد والرديء ، ومن ثم استكشاف الجميل والتمتع به ، ومعرفة القبيح واستهجانه .

والتذوق بدايته اللغة ، فكل جميل لابد له من معنى يعبر عنـه ، وإلا صـار بـلا قيمـة ، فالشعور بالفرح مثلا ، لايمكن أن يترجم إلى إحساس وتذوق ما لم تكن هناك لغة واصفة له ، مثل السعادة ، والفرح ، والسرور ، والضحك ، والحبور ، والانتشـاء ، والانبسـاط ، وغيرها من المعاني المترجمة للشعور من عالم المطلق إلى عالم الحقيقة والتحقق .

على هذا النحو تبدو اللغة هي المدخل الأساسي والأول لتنمية الـذوق ، وبقـدر دعـم الطفل بالمفردات والمعاني والمترادفات ، بقدر ما يزداد الإحساس والمشاعر نحـو مـا تشـير إليه هذه المعاني والمترادفات ، وبقـدر مـا تتكـون الاتجاهـات الإيجابيـة داخـل الأطفـال ، ويزداد وعيهم بالحياة ، وتتشكل في إطار ذلك خبراتهم ، وثقافاتهم ، وقدراتهم الشخصـية التي تضمن أن تجعل منهم شخصيات سوية على المدى البعيد .

إنه ليس من المبالغة القول بأن اللغة هي بداية الاتزان النفسي والعقلي ، وهي الأسـاس في تكوين صورة إيجابية عن النفس ، ومعرفة دخائلها ، وفهم الإنسان لنفسه بعامة ، وهـو أمر ليس بالهين ، فالفارق الحقيقي بين إنسان ناجح وآخر غير ناجح يكمن في القدرة عـلى فهم النفس ، والقدرة على التحديد الواعي والسليم والدقيق للأهـداف في الحيـاة بعامـة ، فمن المعروف أن اللغة أداة تفكير ، وأداة تواصل ، يعرف بها الإنسان نفسـه ، ويعرفـه بهـا الآخرون ، وكلما أوغل الإنسان في امتلاكهـا ، كلـما أوغـل في معرفـة نفسـه ، وفي معرفـة الآخرين على نحو صحيح .

ومن جهة أخرى فقد تميزت حضارتنا العربية بكونها حضارة لغوية في الأساس، وهـو ما جعل الكلمة لها دور الحياة الاجتماعية لم يزل قائما حتى يومنا هذا ، حيـث يبـدأ الـذوق الاجتماعي بالكلمة ، وهو ما شددت الثقافة العربيـة في التأكيـد عليـه ، وأهميـة أن يـتلفظ الإنسان بالكلمة الطيبـة ، وأن يبتعـد عـن الكلـمات النابيـة أو التـي تحمـل دلالات غـير مرغوب فيها ، وهذا يعنى في إجماله ضرورة تنقية معجم الأطفال اللغـوي ، والـتحكم في استخداماته اللغوية في سياق الذوق العام ، وهو ما يمارسـه الآبـاء والأمهـات عـلى نحـو فطري عندما يعزلون أبناءهم عن أبناء المجتمعات التي لاتهتم بمراعاة الـذوق في اللغـة ، ويمنعونهم من مخالطة أبناء السوقة والسِفْلَة بعامة .

يضاف إلى ذلك جميعه أن لغتنا العربية لغة بيانية ، تكثر من استخدام التراكيب البلاغية

والأساليب الرفيعة ، ولها في ذلك طرائق عدة أجملها الجاحظ في تعريفه للبلاغة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال " ؛ أي اختيار الكلمة المناسبة والتركيب المناسب للموقف المناسب ، وهذا يعني وجود بدائل عدة يمكن للمتحدث أن يختار من بينها ، وما أكثر هذه البدائل من تشبيه واستعارة وتورية وإيجاز وإطناب وترادف وطباق ومقابلة وسجع وجناس وأساليب إنشائية وأخرى خبرية ، وإيحاء واستدعاء ، وغيرها كثير مما يمنح الأسلوب خصوصيته ويرقى به إلى مستوى الفصاحة والبلاغة والبيان ، وهو ما يتكفل به الأدب – وحده دون غيره – بإكسابه للأطفال من خلال الجملة المقروءة أو المسموعة أو المنطوقة على لسان الشخصيات والأبطال ، وذلك على اختلاف الوسيط الذي يعرض الأدب من خلاله ، وهو ما سيؤدي في نهاية الأمر إلى تنمية الذوق لدى الأطفال وتنمية ملكات التذوق لديهم ، ومن المعروف في هذا الصدد أن الذوق يمكن اكتسابه من خلال الممارسة والمعايشة الطويلة مع الفنون والآداب المختلفة ، فالحس الموسيقى والقدرة على تذوق الموسيقى يأتي عبر الاستماع المتكرر لأعمال موسيقية راقية ، والحس اللغوي وتذوق المعاني الإنسانية يأتي عبر المعايشة المستمرة لفنون الأدب وأنواعه المختلفة ، وهو ما يصل بالمتلقي في نهاية الأمر إلى الاكتساب الإيجابي للذوق والقدرة على إبرازه .

اللغة والأدب والتربية الإبداعية:

تشغل قضية تربية الأطفال اهتمام البشر جميعهم ، ليس فقط على مستوى المؤسسات التعليمية ، بل على مستوى الأسرة والمجتمع ، وتتنوع المداخل التربوية التي يمكن اعتمادها مع الأطفال ، بتنوع الهدف والغاية ، وتنوع الجانب المراد تنميته في الشخصية ، ومنها التربية الإبداعية التي تكتسب أهميتها من ملاءمتها لطبيعة الأطفال وقدراتهم الإبداعية العالية ، وميولهم الأدبية ، مثل : كتابة القصة والشعر وغيرهما. إضافة لما للأدب من تأثير كبير على لغة الأطفال وتفكيرهم وسماتهم النفسية والشخصية.

إذ من المهم في هذه المرحلة السنية أن تشمل خبرات الطفل الكثير من النماذج الأدبية والأغاني والأناشيد والقصص ، وأن يتم اختيارها بعناية ، نظرا لكونها تنمي الحس الفني لديه ، كما تعمل على تنمية مهارات عدة يتعلق بعضها بالذكاء الوجداني ، وبعضها بمهارات التفكير بعامة ، ويتعلق بعضها الآخر بتنمية الشخصية وتحديد مسار الهوايات فيما بعد ، فليس من الضروري مثلا أن ترتبط ميول الأطفال بالأدب في ذاته بسبب ما يسمعونه في هذه المرحلة ، ولكنها قد ترتبط مثلا بتنمية القدرة على التعبير ، أو القدرة على الرسم مثلا ، أو أي مجال آخر من مجالات التميز والتفوق والإبداع ، وذلك لما للأدب بعامة من قدرة على استثارة الخيال وتنمية المهارات العقلية بعامة ، وهي المهارات التي تتدخل في كافة أنواع التخصص والذكاءات على اختلافها .

وإلى جانب ذلك فإن الأدب الموجه للطفل يحقق أهدافا محددة ، منها :

- الترفيه والإمتاع ، وما يرتبط بهما من إحداث توازن نفسي وعصبي للطفل على المدى البعيد ، فكل إنسان يحتاج إلى الترفيه ، تماما مثلما يحتاج إلى الطعام والشراب والتنفس ، ومن الملاحظ أن كثيرا من الآباء يعانون من عدوانية الأطفال في هذه المرحلة ، ونشاطهم الزائد عن الحد ، وهو ما يكون عادة ناتجا عن عدم التوازن النفسي ، ويحتاج إلى علاج بوسيلة فاعلة ، وليس أفضل من العلاج بإزالة الأسباب ، أي بتحقيق التوازن النفسي ، وهو ما يسهم الأدب في تحقيقه لما يمنحه للطفل من عوالم أرحب ، ومساحات أوسع من الخيال ، ومن تعلم القدرة على التكيف مع الحياة ومع الظروف المحيطة .
- التثقيف ، حيث تعد عملية تثقيف الأطفال من العمليات المعقدة على نحو كبير جدا ، وهناك كثير من الاعتقادات المخطئة التي ترى أن مراحل التنشئة والتثقيف تبدأ مع سن الالتحاق بالمدرسة أو الروضة ، والصحيح أن عمليات

التنشئة والثقيف تبدأ من العام الأول ، وتعد أكثر الأشكال ملاءمة لذلك هي الأغاني والأناشيد والقصص ، ويلاحظ أن الأطفال منذ السنة الثانية يطلبون هم بأنفسهم أن يستمعوا إلى قصة (حدوتة) أو أغنية ، وهو ما يشير لأهمية استغلال الأدب في إحداث وعي تعليمي تثقيفي ، لما يتضمنه الأدب من قيم وأخلاق وعادات وتقاليد يصعب إكسابها وتعليمها للطفل من دون الأدب ، مثل الأمانة والتضحية والصدق ، وغيرها مما يتكفل الأدب بتكوينها كاتجاهات داخل الأطفال ، بمعنى أنه يصنعها فعليا في سلوكياتهم ، وليس نظريا في معجمهم اللغوي فقط .

- تنمية المهارات الأساسية ، سواء ما يرتبط منها بالمهارات اللغوية (من منظور أن اللغة أساس التفكير ، واللغة أساس التواصل ، واللغة أساس بناء الشخصية) ، أو ما يرتبط بالمهارات الحركية (يظهر ذلك في تقليد حركات الشخصيات ، حيث تنطبع الشخصية الحكائية في عقلية الطفل وترتسم على نحو أوضح مما يحدث مع الكبار) ، أو المهارات السلوكية ، أو غيرها مما يكوِّن شخصية الإنسان ويعطيه ملامح فارقة عن غيره من بقية الناس .

الفصل الثاني : ثقافة الطفل

الفصل الثاني : ثقافة الطفل

سنتعامل مع الثقافة هنا بوصفها العلم والمعرفة ، والتي ستسهم فيما بعد في تشكيل الوعي الثقافي بمستوياته المتراتبة [١] ، وهذا العلم والمعرفة بالنسبة للأطفال هو الثقافة قياسا إلى الأطفال ومستوياتهم الثقافية هم لا قياسا إلى الكبار .

من هذا المنطلق سنسلم أن للأطفال معارفهم ومعلوماتهم ، وهي دوما ستحتاج إلى تنمية وتنسيق ، لكي تصبح جزءا من خبراتهم الباقية التي تتحرك دوما إلى الأمام ، وجزءا من ثقافتهم المستقبلية سواء على مستوى السلوك أم على مستوى النتاج .

---

١ – المعرفة في أبسط مفاهيمها هي العلم بالشيء ، وكل شيء في الحياة له خصائصه ووظائفه ، وينقسم الإنسان في موقفه تجاه (الشيء) – أي شيء – ، إما العلم والمعرفة بخصائصه أو بعضها، وإما الجهل التام بوظائفه ، ونظرا لأن الأشياء متعددة في الكون (الأرض والسماء والجبال والبحار والمعاني والرموز والدلالات ..... إلخ)، فليس في الإمكان وجود إنسان جاهل كاملا ، كما أنه ليس هناك إنسان عارف كاملا (عالم بكل شيء) ، ولكن المعرفة بالشيء لاتقتضي بالضرورة إمكانية قدرة الإنسان على التعامل معه أو فهم خصائصه ووظائفه تماما ، وإلا لكان الكون قد توقف عن الحركة والاستمرار في مسيرته ، فالأشياء تحمل دوما معارفها الكامنة ، والتي تتكشف شيئا فشيئا بفعل الإنسان وقدرته على استنطاقها ، والأمثلة على ذلك كثيرة بدءا من الظواهر الطبيعية وحركة الأفلاك وانتهاء بالمعارف النظرية وعلاقة الإنسان بما حوله .

والمعرفة بوصفها امتلاك العلم بالشيء من عدمه تمثل مستوى من المستويات الأولية التي يمكن لها أن توظف لتنتج ثقافة ، ولكنها بمفردها . أي المعرفة لاتكفي حاملا لإنتاج ثقافة ، وإنما هي تشبه المادة الأولية والخامة التي يمكن أن تتشكل منها منتجات عديدة ، مثلها مثل الحديد الذي يقبل لأن يتشكل بمفرده في منتج ، أو يمتزج ليدخل في مكونات أخرى كثيرة ، فقد يكون مسمارا في مكتب خشبي ، من دونه ينهار المكتب ، وقد يكون جزيئات من قائم حديدي ضخم ، وهكذا ....
انظر مناقشتنا للمعرفة والثقافة في كتاب : الثقافة والهوية والوعي العربي – الفصل الأول – ص ٢٩، وما بعدها .

كل طفل موهوب :

تلك حقيقة تؤكدها دراسات وأبحاث عديدة تنتمي إلى حقول معرفية متنوعة ، وبخاصة علم النفس ، وأبحاث المخ ، فكل طفل هو طفل موهوب ، يمتلك بداخله كافة أنواع المواهب والقدرات العقلية ، والدلائل على ذلك كثيرة :

- في مرحلة السنوات الأولى يمارس الأطفال كل الهوايات ويمتلكون كل المواهب المتاحة، فيرسمون ويلونون ويغنون ويتراقصون ، ويفعلون كل شيء ، ولكن إذا أتيحت لهم فرصة الرعاية السليمة لمهارة أو موهبة ما فإنهم يستمرون فيها، أما إذا لم يتنبه الآباء ، ولم يساعد المجتمع المحيط فإنهم يتراجعون إلى الوراء ، وتخمد شعلة النشاط لديهم .
- يمتلك كل الأطفال بلا استثناء في مراحل الطفولة الأولى خيالا واسعا يسمح لهم بأن يحكوا حكايات ، ويقصوا روايات محبوكة فنيا ، وإن كانت بعض أحداثها غير منطقية بمنطقنا الواقعي ، ولكنها لاحدود للخيال فيها ، وهو أمر عائد إلى الخيال الخصب والقدرات العقلية غير المحدودة التي يتمتعون بها ، وقدرتهم أو طبيعتهم على اجتياز الحواجز والعوائق الفكرية ، ومن ثم إمكاناتهم العليا في التوصل إلى حلول غير متوقعة لمشكلات ومسائل قد يرى الكبار فيها استحالة التوصل إلى حلول .
- يتمتع كل الأطفال بنشاط زائد وحركة مستمرة ، والذي غالبا ما يشكو منه الآباء والقائمون على أمر تربية الأطفال ، وهو ما فسرته أبحاث المخ بأنه نشاط زائد في خلايا المخ المختصة بالجهاز الحركي ، وطاقة مكبوتة ، ونوع من أنواع الذكاء الحركي، الذي إذا تم استثماره على نحو سليم أمكن صناعة الأفراد تبعا للحاجة ، ولصالح تنمية المواهب الحركية العليا ، مثل الأبطال الرياضيين والرسامين وغيرهم ، ولايخلو طفل من قدرة على امتلاك واحد أو أكثر من هذه المواهب ، وميله الشديد نحو القيام بحركات مستمرة في هذا النشاط .

- يمتلك الأطفال دافعية قوية لعمل ما يحبون ، فقد يستغرق أحدهم في محادثة لعبه ساعات طوال من دون أن يشعر بالجوع أو العطش ، فكيف سيكون حال هؤلاء الأطفال لو تم توجيههم التوجيه السليم نحو العمل على تنمية مواهبهم من خلال الكتابة الموجهة والأدب الموجه والألعاب الموجهة ، وغيرها من الوسائط التي تستغل الدافعية القوية للأطفال في تمرير المفاهيم والقيم.

فهل يمكن والحالة تلك أن يكون أحد منطلقات التنشئة السليمة للأطفال وتنمية مواهبهم ، هو الاعتماد على الأدب بأنواعه المختلفة [٢] ؟ هل يمكن بناء نمط ثقافي معرفي من خلال اختيار الآداب العربية الأصيلة سواء من التراث أو الكتابة المعاصرة من أجل تدعيم القيم الثقافية والروحية العربية ؟

إن واقع ومستقبل الشخصية العربية يحتم عليها زيادة الاهتمام بكل ما يدعم بناء شخصية الطفل العربي ، انطلاقا من محاولات مواجهة الموجة العالمية الحالية للغزو الثقافي، والعولمة الثقافية ، والتحول العالمي في المفاهيم .

[٢] – ليس المقصود هنا هو الأدب في صورته المكتوبة فقط ، وإنما سيضاف إليه بالطبع كافة الوسائط التي يمكن أن يتلقى الطفل عن طريقها الأدب ، من قراءة ، واستماع ، ومشاهدة مرئية عبر شاشات التليفزيون والكمبيوتر ، وغيرها من الوسائط المطروحة ، أو التي يمكن أن يطرحها المستقبل ، ولكن هذه الوسائط على اختلافها ستخضع جميعها للنص المكتوب في شكل أدب سواء أكان قصة أم مسرحية أم أغنية ..... إلخ .

كيف يفكر الأطفال؟

هل في الإمكان معرفة كيف يفكر الأطفال؟ وهل تستطيع عقولهم الصغيرة التفكير على نحو معقد كما يحدث لدى الكبار ؟

في حقيقة الأمر فإن الجهاز العقلي للأطفال يعمل منذ ولادتهم ، فيفكرون ويشعرون بالجوع والخوف والأمان ، ومع الدخول في سياق تعلم اللغة وامتلاك معجم لغوي على نحوما فإن جهازهم العقلي يكون قد وصل إلى مرحلة من الاكتمال التي تسمح لهم بأن يفكروا على نحو أعلى مما يمتلك الكبار ، وبخاصة أن تفكيرهم في هذه المرحلة يخلو من القيود على عكس الكبار ، الذين يخضع تفكيرهم لقيود المنطق والأعراف والتقاليد والانتماء الديني والعرقي ، وغيرها من العوامل التي يتحرر تفكير الأطفال منها تماما ، مما يجعل عقولهم لاحدود لما يمكن أن تتوصل إليه .

وتعد السنوات الخمس الأولى من أعلى المراحل السنية التي يبلغ فيها الأطفال حدا من الذكاء والعبقرية لامثيل له في حياة الإنسان ، ولكنه يبدأ في التناقص بعد السنوات الخمس الأولى إذا لم يجد الرعاية الواعية المدركة لما تفعله معهم .

ولعل العوامل التي تؤدي لانحراف معدلات وأنواع الذكاءات في مرحلة ما قبل التعليم ، أو تعمل على تعطيله كثيرة، منها :

- عدم وعي الأسرة بأهمية وضرورة تنمية المهارات اللغوية ، مما يعمل على تعطيل القدرات العقلية عندما لاتستطيع التواصل مع المواهب والذكاءات ، فكل شيء يفكر فيه الإنسان لابد أن يترجم إلى لغة وإلا فقد الإنسان القدرة على التواصل معه ، وهكذا الحال بالنسبة للأطفال ، فعلى سبيل المثال لم يستطع طه حسين (الطفل الكفيف) أن يعرف معنى الكاكاو ، لأنه لم يتعامل معه، ولم يره ، ومن ثم لم يجد المعلم (العريف) مرادفا أو وسيلة يشرح بها لتلميذه ، والأمر مع الكاكاو سهل ، فما بالنا

بالمفاهيم المجردة مثلا ، أو القيم والاتجاهات ، أو المهارات الداعمة للذكاءات والمواهب المختلفة .

- تدخل الآباء في الحجر على الأبناء فيما يقولون وما لايقولون دون مبرر منطقي ، فمثلا يقبلون منهم مفردات وتراكيب وتعليقات في أوقات ما ، ويبدون إعجابهم بها ، وقد لايقبلون التعليقات ذاتها في أوقات أخرى قد تكون في حضرة أغراب مثلا ، ومن ثم يعنفون الأطفال ويعاقبونهم ، وبالطبع لايفهم الأطفال مثل هذه التصرفات من الكبار ، ولكن نتائجها تكون سلبية عليهم ، وقد تؤدي إلى فقد القدرة على الثقة في النفس ، والوقوع في ارتباكات عديدة لاينتهي تأثيرها على المدى البعيد لتكون الشخصية .
- عدم الوعي بطبيعة الأطفال وسماتهم النفسية والحركية ، ودوافعهم واتجاهاتهم ، فمثلا يتميز الأطفال في سن ما قبل المدرسة ، وبخاصة الموهوبين منهم (وكلهم موهوبون) بأنهم سريعو الملل ، سريعو التعلق بالشيء ، سريعو التنقل بين البدائل ، وما ذلك إلا لأنهم يتعاملون مع الكون جميعه من حولهم بمنطق الاستكشاف ، ومن ثم يتعلقون بالشيء بشدة ، ويعرضون عنه بعدما يستكشفونه ، ومن ثم يرى بعض علماء النفس أن سلوك الأطفال مثلا في تكسير اللعب ناتج عن هذه المحاولة من الاستكشاف .
- عدم استيعاب الأطفال عندما تكون أسئلتهم كثيرة – وهو الأمر الغالب – فقد يتضجر المحيطون وأفراد الأسرة من هذه الأسئلة ويعدونها نوعا من أنواع الجدال لافائدة منه ، ومن ثم يعمدون إلى الحد منها بالتوبيخ أحيانا وبالتجاهل أحيانا ، وبطلب الكف عن طرح الأسئلة أحيانا أخرى ، وهذا في حد ذاته من الأمور البالغة الخطورة ، فالسؤال بداية المعرفة ، والفيلسوف الحقيقي والمفكر الحقيقي والمثقف

الحقيقي ، ما هو إلا مجموعة من الأسئلة ، ويقضي الإنسان حياتـه في محاولـة الإجابـة عن الأسئلة التي يفكر فيها وتواجهه ، بل إن الإنسان إذا توقـف عـن طـرح الأسـئلة على نفسه توقف عن التطـور ، وإذا كـان هـذا بالنسـبة للكبـار وبهـذه الدرجـة مـن الوضوح ، فإنه مع الصغار كذلك ، وإن كان بآليات مختلفة ، وتكفي في هـذا الصـدد مقارنة بين طفل ترك له أهله حرية السؤال وتعاملوا معه باحترام لعقليته ، وبين طفل آخر تم تجاهل أسـئلته أو ردعـه في طـرح أسـئلة ، والفـارق بيـنهما شاسـع ، أولهـما : شخصية مستقرة متسقة مع ذاتها ، وثانيهما : يمتلك من السلبيات قدرا قد يقل ويكثر تبعا لظروف تنشئته وحظه من إيجابياتها .

- عدم الاهتمام بإشباع العقل والروح والخيال بالفنون الأدبية المختلفة التـي مـن أجـل أهميتها يأتي هذا الكتاب إجمالا .

وهناك نصيحة شهيرة في هذا الصدد يطلقها علماء النفس ويؤكدون عليها ، تقـول: ينبغي أن نكف عن محاولاتنا جعل الأطفال يفكرون بعقولنا ويتصرـفون بمنطـق الكبـار، بمعنى أننا يجب أن نتوقف عن التعامل مع الأطفال باعتبارهم كبارا ، عليهم بالضرورة أن يلتزموا بالمنطق العقلي لنا نحن الكبـار ، ويفهمـون معتقـداتنا وتقاليـدنا ، ويلتزمـون بهـا التزاما حرفيا ؛ ذلك أنهم في كثير من الأحيان لاتمتلك عقولهم القدرة عـلى فهـم مـا يـدور حولهم من تصرفات الكبار ، وبخاصة أن الكبار أنفسهم ليسوا دائما على وعي بتصرـفاتهم هم أنفسهم ، بمعنى أن الإنسان قد يقـوم بتصرـفات ، ثـم يعـود هـو نفسـه لاسـتنكارها ورفضها والتعجب من كيفية قيامه بها ، ثم يعـود ليتبناهـا أو ليتبنـى نقيضـها تبعـا لتغـير الحالات المزاجية وطبيعة الموقف ، والبيئة المحيطة عموما .

أبحاث المخ ونظريات الذكاء وعلاقتها بالأطفال :

في النصف الثاني من القرن العشرين أعلن سيجموند فرويد أنه يستطيع أن يتحكم في صناعة أطفال المستقبل ، كما لو كان يتحكم في منتج عن طريق مصنع ، فيتحكم في أحجام المنتج ، وألوانه، ومواصفاته، وعندما أعلن فرويد ذلك لم يكن في إمكان المجتمع أن يستوعب ، ذلك أن المجتمع كان يؤمن بأن عمليات التثقيف والتربية يمكن لها أن تحسن في السلوك ، ولكنها لاتضمن مواصفات المنتج (نواتج التعلم : المتعلمين) ، ولكن في نهايات القرن العشرين ومع التطور الفادح الذي لحق كافة الأشياء والكائنات ، والبدائل التي طرحت لإمكانات التعديل في وظائف الكائنات وسماتها ، وإدخال وظائف لم تكن فيها من قبل ، ومع ظهور ما أطلق عليه الذكاء الاصطناعي الذي تعامل مع المخ البشري بوصفه آلة ، وسعى لاكتشاف ورسم خارطة له، وتمكنت الدراسات بالفعل من تشريح المخ تشريحا فيزيائيا للكشف عن وظائفه وخلاياه ، والأدوار التي يختص بها كل مركز من مراكزه ، وتم بالفعل رسم خرائط للمخ البشري ، وعلى الرغم من ضآلة ما تم الكشف عنه حتى الآن قياسا لما يحير العلم في إعجاز خلق الله تعالى للمخ البشري[٣] ، على الرغم من هذه القلة ، إلا أن ما تم الكشف عنه قد أحدث ثورة في مفاهيم الحياة والعلوم ، فنبه

٣ – حقائق علمية عن المخ :

- يبلغ وزن المخ حوالى كيلو جرام واحد أو أقل .
- يتكون المخ من عدد من الخلايا العصبية تبلغ نحو مائة ألف مليار خلية .
- في كل ملم مربع واحد من نسيج المخ يوجد مليون نيورون.
- يستهلك المخ 20٪ من طاقة الجسم .
- يستهلك 20٪ من أكسجين الجسم .
- يحتاج المخ إلى 5 8أ7 جالون دم كل ساعة ؛ أى 189 جالون دم كل يوم .
- يحتاج من 8 إلى 12 كوب ماء يوميا .

التربية عموما إلى تغيير مسارها من كون عمليات التعلم مسؤولية المتعلم ، إلى جعلها مسؤولية المتعلم ، وبناء كل الخبرات التعليمية التعلمية حول المتعلم ، انطلاقا من مبدأ " علمني ما أريد لاتعلمني ما تريده أنت" .

هناك نظريات تفسر الذكاءات الإنسانية ، وتصنفها إلى أنواع تقل وتكثر تبعا للتأويل وخضوعا لأبحاث المخ التي تكشف كل يوم جديدا في عالم التطور الإنساني وكيفية اشتغال المخ ، ومن بين هذه النظريات توجد نظرية أقرب إلى إمكانية قبولها لتفسير نبتغيه ، وهي نظرية الذكاءات المتعددة لهوارد جاردنر ، والتي تلتقي مع فكرة أن كل إنسان مثقف، وتري – أي نظرية الذكاءات - أن كل إنسان ذكي، وأنه لا يوجد شخص ذكي وآخر محروم من الذكاء ، ولا تركز على كون الذكاء وراثيا أم هو تطورا بيئيا . كما أنها ترى بأن الذكاء ليس واحدا كما كان يعرف فيما سبق ، والمحاولات التي كانت تسعى لقياس درجته لدى الإنسان ، ومن ثم تصنف البشر على أنهم إما أذكياء وإما أغبياء (نظرية الذكاء الواحد IQ) ، ومن ثم ترى نظرية الذكاءات أنه لا يوجد ذكاء واحد ، وإنما هناك ذكاءات متعددة Multiple Intelligences ، يمتلك كل إنسان واحدا منها أو أكثرعلى أقل تقدير ، وهي : الذكاء اللغوي ، والذكاء المنطقي ، الذكاء المكاني ، والذكاء الموسيقي ، والذكاء الجسمي الحركي، والذكاء الشخصي- الاجتماعي ، والذكاء الشخصي- الذاتي ، والذكاء الطبيعي ، والذكاء الوجداني العاطفي ، والذكاء المرتبط بالخلق والوجود ، وغيرها من الذكاءات .

وهذه الأنواع من الذكاءات لا تتشكل مع تقدم الإنسان في العمر أو بلوغه سن النضج العقلي ، وإنما هي كامنة في الإنسان ، تولد معه ، ولكن التحدي الحقيقي في ذلك يكمن في القدرة على اكتشافها وتنميتها لدى الأطفال والتقدم بها إلى الأمام . وفيما يلي

توضيح لأبعاد هذه الذكاءات لدى الأطفال ، وإمكانات استثمارها في بناء أنماطهم الثقافية من خلال مدخل الأدب :

- **الذكاء اللغوي :**

يرتبط هذا الذكاء بالقدرات اللفظية (البلاغة والفصاحة والقدرة على التعبير وثراء المعجم اللغوي ، والقدرة على التحدث بطلاقة وتنظيم واختيار مفردات معبرة) ، وما يتعلق بها من قدرات أدبية وإبداعية وتعبيرية لغوية، وهو ما يمكن رصده لدى الأطفال عبر مظهرين :

يتمثل المظهر الأول منهما في توجيه الانتباه نحو كيفية تكون الخبرات والمفاهيم في عقول الأطفال ، بمعنى الوقوف على كيفية تشكل وتكون اللغة في عقولهم ، ففي كثير من الأحيان يفاجؤنا الأطفال بالسؤال عن معنى كلمة ما ، قد لانتوقع أنهم سمعوها ، وبخاصة المعاني المجردة غير المحسوسة ، مثل السؤال عن الحق والحرية والديمقراطية والطاعة والرضا والبخل والكرم والسياسة[٤] ، وغيرها من المعاني التي قد يصعب شرحها للأطفال ، وهنا تكمن الخطورة ، فأي تفسير قاصر أو غير سليم يقدم للأطفال ، ستكون آثاره سلبية على المدى البعيد ، ليس فقط على مستوى اكتساب معانٍ غير صحيحة ، ولكن على مستوى تكوين اتجاهات سلبية نحو هذا المفهوم، كما أنه قد يتسبب في تكوين أخطاء تظل باقية مدى الحياة تعمل في اللاوعي ، وتتحكم في السلوكيات الناتجة .

ويتمثل المظهر الثاني في التفاعل والاستخدام الوظيفي للغة على المستوى اليومي ، وهو ما يمكن رصده من خلال استخدام الأطفال لتعبيرات وتعليقات محددة في مواقف ما ، تكون هذه التعليقات في بعض الأحيان غير متوقعة بالمرة من الطفل ، ولكن الأغرب فيها

[٤] – فاجأتني ابنتي وهي في سن الرابعة بالسؤال عن معنى " الحدود السياسية " ، وبالاستقصاء عن مصدر سماعها للمصطلح تبين أنه التليفزيون ، ولم تكن تلك هي المشكلة ، وإنما كانت في كيفية شرح المفهوم بمفردات تتناسب وحدود ثقافتها ، وهكذا الحال مع أي طفل وفي أي بيئة .

أنها تكون معبرة بدقة عن الموقف ، ومتوافقة مع السياق العام الذي قيلت فيه ، وتكون هذه التعبيرات ناتجة في الغالب الأعم عن المحاكاة ، بمعنى محاكاة الطفل لخبرة ثقافية مر بها من خلال وسيط ما ، كأن يكون قد استمع إلى قصة ، أو شاهد فيلما عبر شاشات التليفزيون ، أو رأى مشهدا في الحياة اليومية ، وهي خبرات تعتمل داخل عقل الطفل ، وتظل في حالة حراك دائم حتى تجد المخرج لها ، مما يمكن أن يظهر أمامنا ، أو أن تبدعه مخيلة الطفل لو أتيحت له الفرصة للتعبير .

- **الذكاء المنطقي** :

ويختص بأساليب التفكير المنطقية والرياضية والعمليات العقلية الحسابية وإدراك العلاقات بين الأشياء ، مثل الرياضيات العلمية ، وما يرتبط بها من فروع . ويرتبط هذا الذكاء بالقدرة على تنمية مهارات التفكير المنطقي ، وهي لاتبدأ من الرياضيات والعمليات الحسابية فحسب ، بل تبدأ من إدراك العلاقات بين الأحداث والأشياء والأشخاص ، وملاحظة هذه العلاقات ، وتبين الخلل الكامن فيها.

فعلى سبيل المثال ؛ وكما يؤكد علماء النفس أنه عند عرض أو حكى قصة للأطفال –أي قصة – فإنهم يهتمون بالتفاصيل الدقيقة التي قد يتجاهلها الكبار ، إلى درجة أنه عند إعادة حكي القصة عليهم ، فإنهم يتدخلون لتذكير الراوي بالأحداث التي سقطت منه ، أوالتي لا يهتم هو بسردها .

على هذا النحو تبدو الحاجة ملحة إلى الاعتماد على الأدب والرسوم والصور والحكايات في تنمية مهارات التفكير المنطقي ، مع الوضع في الاعتبار أننا لانعني بالتفكير المنطقي إجبار الطفل على الالتزام بخطوات محددة متراتبة على نحو ما ، ويسلم كل منها للآخر ، ولكننا نعني فقط تنمية القدرة على ربط العلاقات ربطا سليما، والخروج منها بنتائج ، وإيجاد العلاقات المخفية ، وعلى نحو إبداعي .

- **الذكاء المكاني(الفراغي):**

ويتعلق بالقدرة على تصور المكان النسبي للأشياء في الفراغ . مثل ذوي القدرات الفنية وبخاصة الرسامين ، ومصممي الأشكال الهندسية المعمارية، ومصممي الأزياء وغيرهم ممن يتخيلون أشياء مادية لم تكن موجودة من قبل .

ويمثل بداية هذا الذكاء التعرف على الأماكن وتذكر تفاصيلها، مثل أولئك الذين يذهبون إلى مكان ما مرة واحدة ولكنهم يستطيعون الذهاب إليه دون مرشد أو دليل وإن طال الزمن، أو الذين يستطعون الوصول إلى الأماكن عن طريق الشرح النظري ، وغيرهم ممن يتذكرون الأماكن بسهولة .

ويظهر هذا الذكاء لدى الأطفال في الرسم خاصة ، حيث يرسمون من خيالهم ويضيفون وظائف وعناصر ليست موجودة في حقيقة الشيء المرسوم ، فمثلا يمكن للطفل أن يرسم عربة لها جناحين ، لأنه يحل مشكلة ما في خياله تعرض لها في الواقع ويريد حلها ، أو لأنه لايرضى عن الشكل الحالي للسيارة لأسباب خاصة به تعرض لها هو ولم يستطع أن يعبر عنها في شكل لغة ، أو غيرها من الأسباب الإنسانية العديدة التي تجعل الطفل يتخيل أشياء في الفراغ ولاوجود لها في الحقيقة ، أو ربما هي موجودة ولكنها خافية عن الأنظار ، هكذا يفكر الطفل ، ويكوِّن تصوراته عن الأِشياء المحيطة به ، ولكنها تتفق جميعا على كونها تصورات بلا عوائق ، وتميل إلى الإشراق والتفاؤل في إجمالها.

- **الذكاء الموسيقي :**

وليس المقصود به الموسيقى الناتجة عن الآلات فقط ، وإنما تلك الموسيقى الناتجة عن الإيقاع الكامن في الكون والحياة ، فقليل أولئك القادرون على الإنصات إلى الإيقاع في الحياة ، وقليلون أولئك الذين يمتلكون القدرة على الاستمتاع بنغم الكون ، ويتجسد هذا الذكاء في قمته عند ذوي القدرات غير العادية في الموسيقى والملحنين ومؤلفي النوتات

الموسيقية ، ويتدرج هذا الذكاء في مستوياته ليشـمل القـدرة عـلى الاسـتماع إلى الموسـيقى والاستمتاع بها ، والقدرة على الاستماع إلى الشعر والاستمتاع به ، والقدرة على التأمـل في الكون وحركة إيقاع مفرداته ، والإنصات إليها ، مثل حركة الأشجار وحفيـف الأوراق ، وخرير المياه ، وزقزقة العصافير ، وهديل الحمام ، ونواح اليمام ، وصهيل الخيول ، وغيرها من الإيقاعات التي تمثل خلفية راسخة لكل نفس بشرية ترتكز عليها في اتسـاقها النفسي- مع ذاتها أولا ، ثم في اتساقها مع العالم الخارجي المحيط ، ومن ثم في القـدرة عـلى الإنتـاج والإبداع .

أما لدى الأطفال فتتمثل مظاهر التعبير عن هذا النوع من الذكاء في اسـتماع كثـير مـن الأطفال إلى الأغنيات من أمهاتهم إلى الدرجـة التـي تجعلهـم يكفـون عـن البكـاء عنـدما يستمعون لمن يغني لهم ، ومع مراحل النمو في ميل بعض الأطفال إلى الدندنة مـع الـنفس بكلمات إيقاعية قد تكون غير مفهومة ، ثم في مراحل متقدمة وبعد أن يكتسـب الأطفـال الكلام تأتي محاولة تأليف أغاني من كلمات عادية ولكن طريقة إلقائهـا تميـل إلى الإيقـاع ، وكذلك في إحداث إيقاعات موسيقية بالأدوات المتاحة من خلال النقر على كل ما يمكـن أن يصدر صوتا ، وغيره مما يكشف على تكون الحس الموسيقى لـدى الأطفـال ، ووعـيهم بإيقاع مفردات الكون ولكن بمفهومهم الخاص .

- **الذكاء الجسمي الحركي:**

ويتمثل لدى القادرين على الإنتاج باستخدام الجسم أو جـزء منـه ، مثـل : الرياضـيين واللاعبين والراقصين والجراحين وعـازفي الآلات الموسـيقية ، والمشـتغلين بأيـديهم عـلى آلات دقيقة تقتضي السرعة والتمكن ، مثل القادرين عـلى الكتابـة عـلى لوحـة الكمبيـوتر بسرعة وإتقان في حياتنا المعاصرة ، وكذلك القادرين على اتخاذ ردود فعل سريعة وقوية في أثناء قيادة السيارات ، أو أثناء حركتهم اليومية .

ومن المعروف أن الأطفال عادة ما يكونون كثيري الحركة ، وأنهم في حركتهم يقلـدون كل الحركات التي يشاهدونها عبر شاشات التليفزيون ، أو التـي يقـوم بهـا الآخـرون ، أو التي يشاهدون الحيوانـات والطيـور تقـوم بهـا ، ومـن هنـا يـأتي دور الأسرة في إكسـاب القدرات الحركية للطفل ، وفي توجيهها التوجيه السـليم ، ولـيس كبتهـا ، أو النهـي عـن القيام بها ، ذلك أن الحركة هـي ترجمـة صـادقة للطاقـات الداخليـة لـدى الطفـل ، ومـن الأشكال المهمة – على سبيل المثال – التي يمكن التنفيس عن حركـة الطفـل مـن خلالهـا الرسم والتلوين ، والقصص الأدبية المصورة، التـي تنمـو مـن خلالهـا حركـة الأصـابع ، وتنمو معها قدرات عقلية عليا .

- **الذكاء الشخصي الاجتماعي:**

يرتبط الذكاء الشخصي الاجتماعي بالقدرة على فهم الآخرين وكيفية التعـاون معهـم ، وملاحظة الفروق بينهم ، واكتشاف التناقض في دافعيتهم (طباعهم وكلامهـم) ؛ أي إنـه باختصار يتعلق بالقدرة على فهم أفراد المجتمع المحيط بهم وتكوين صورة عنهم والنجاح في التعامل معهم .

ولا شك أن الأدب يتكفل بدور مهم في تنمية مهارات هذا النوع من الـذكاء ، وذلـك من جوانب عدة ، منها مثلا ما يقوم به الأدب من استعراض لـنماذج بشريـة وتحركاتهـا في الحياة ، وهو ما يعطي الطفل خبرة عن أفكار وحيـاة البشرـ الآخـرين، ومنهـا مـا يقدمـه الأدب من تنمية لدافعية الطفل نحو التعاون مع الآخرين، ومـع الكائنـات المحيطـة بـه ، ومنها ما يكشف عنه الأدب من تنمية القدرة على رصـد الجوانـب الإيجابيـة والسـلبية في الآخرين ، مثل التمييز بين الشخصيات الشريـرة والشخصـيات الخـيرة ، وبـين الأفعـال المقبولة والأفعال المرفوضة من البشر ، والربط بين الخير وتقبل المجتمع وبين الشر ورفض المجتمع ، وهكذا .

- **الذكاء الشخصي الذاتي:**

ويرتبط بالقدرة على تشكيل نموذج صادق عن الذات (فهم الذات جيداً) واستخدامه بفاعلية في الحياة ، وتألق عاطفته و قدرته على التميز(°) ؛ ذلك أنه ليس كل الناس بقادرين على فهم أنفسهم ورغباتهم واحتياجاتهم ولحظات قوتهم وضعفهم ، وتتمثل قمة هذا النوع من الذكاء في الفلاسفة والمفكرين .

والأطفال كما هو معروف يفكرون في كل شيء يحيط بهم بدرجة ما ، ويقفون أمام العديد من المشكلات – يمكن في ذلك ملاحظة كم وطبيعة الأسئلة التي يطرحها الأطفال في اليوم الواحد - ، وعلى قدر تطور أسئلتهم على قدر نموهم العقلي ، وهنا تأتي أهمية فتح آفاق جديدة أمامهم وهو ما يتأتي من خلال الأدب والقصص والأغاني التي تجعل الأطفال يتعايشون معها ويفكرون في أنفسهم قياسا إلى الشخصيات والأبطال التي طرحها أمامهم الأدب ، ويحاولون أن يتمثلوا أفعال هذه الشخصيات في تفكيرهم ، ومن ثم يطورون من أنفسهم لصالح ما أعجبهم من أفكار لدى هذه الشخصيات ، أو ما تماثل معهم من معان وصفات اكتسبوها من خلال الأدب .

كما أن المشاعر والعواطف العديدة يتعرف عليها الأطفال من خلال القصص والحكايات والأغاني والأناشيد ، فإذا كانت عواطف الأمومة والحب يكتسبها الأطفال من خلال الأسرة ومعايشتهم معهم ، فإن عواطف الكره والألم واليأس وغيرها يكتسبونها فقط من خلال الأدب ، وهي مهمة لتكتمل الصورة لدى الطفل، فكل عاطفة لابد لها من مقابل تقاس عليه ، وإلا صارت معتمة بلا معنى .

° انظر في ذلك :

- السرور: مدخل إلى تربية المتميزين والموهوبين – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع– عمّان– ١٩٩٨.
- الوقفي : مقدمة في علم النفس– ط٣ – دار الشروق للنشر والتوزيع – عمّان– ١٩٨٠ .

- **الذكاء الطبيعي :**

ويتصف به الإنسان القادر على تأمل الطبيعة (الجبال والهضاب والوديان والماء والنبات) والاستمتاع بها والتفاعل معها ، ومن ثم القدرة على تصويرها والتعبير عن مشاهدته لها .

ويمكن رصد وتنمية هذا النوع من الذكاء لدى الأطفال من خلال تعاملهم مع المشاهد الطبيعية التي تعرضها قصص الأطفال سواء عبر الكتب والمجلات أو عبر الصور المتحركة من خلال وسائل الإعلام والتكنولوجيا المعاصرة ، فعلى سبيل المثال يسحر الكثير من الأطفال بقصص طرزان في الأدغال ، وقصص السندباد ؛ لما فيها من مشاهد من الطبيعة تخاطب هذا النوع من الذكاء لديهم .

من هنا تأتي أهمية تصوير المشهد الطبيعي في أدب الأطفال ، وأهمية اختيار النماذج الأدبية التي تنمي هذا الحس لديهم .

- **الذكاء العاطفي (الوجداني) :**

ويرتبط بالقدرة على الحب (أن تحب الآخرين ويحبوك) ، والقدرة على التأثير عاطفيا في الآخرين ، الذكاء العاطفي هو القدرة على إدارة وفرز العواطف الذاتية بشكل سليم في علاقتنا مع الآخرين، وعلى الرغم من أن جزءا كبيرا من هذا الذكاء هو وهب من الله تعالى ، مثل القدرة على الجاذبية (كاريزما) ، إلا أنه في الإمكان تنمية هذا الذكاء من خلال الممارسات والسلوكيات المرغوبة من الآخرين والتي تؤثر فيهم ، وهي السلوكيات التي حثت عليها الأديان مجتمعة ، فالأمانة والصدق والأخلاقيات الحسنة تؤثر في الآخرين وتجعلهم يحبونك ، وهو ما يتكفل الأدب بتكوينه على نحو إيجابي لدى الأطفال ، من خلال رغبتهم في التمثل بسلوكيات أبطال القصص والحكايات ، والتأثر بما تشمله الأناشيد والأغاني من قيم حميدة.

أدب الأطفال والذكاءات المتعددة :

إن الأطفال جميعهم يمتلكون واحدا أو أكثر من هذه الأنواع من الذكاءات ، وهو ما يمكن تنميته ، عند امتلاك الخبرات الكافية بهذا النوع من الذكاء ، والأنشطة التي يمكن ممارستها لتنميته .

وباختبار مدخل الأدب والحكايات والقصص والأناشيد ، فإنه يمكن التأكيد على الدور الإيجابي الذي يمكن أن تقوم به القصص والحكايات والأغاني والأناشيد في تنمية الذكاءات المتعددة لدى الأطفال ، وبخاصة الذكاء اللغوي ، والذكاء المنطقي ، والذكاء الشخصي الاجتماعي ، والذكاء المكاني (لما له من قدرة على تصور الأماكن والأحداث) ، إلى جانب الذكاء الحركي إذا ما قام المتلقي بتقليد حركات الشخصيات ، وهو ما يحدث في الغالب الأعم .

إن الاهتمام بممارسة الأنشطة الإبداعية وتذوقها ، مثل القص والحكي والشعر والمسرح ، والرسم والتصوير، والأشغال اليدوية الفنية ، وغيرها من الهوايات التي يميل الطفل إليها ، كل ذلك له أثر كبير في بناء ثقافتهم الحالية والمستقبلية ، فعندما يمارس الأطفال نشاطا ما مما سبق ، فإنهم يجدون أنفسهم مبتكرين ، وهنا تتغير نظرتهم للحياة والتعامل مع الثقافة ليس بوصفها معلومات تختزن في الذهن ، وإنما بوصفها خبرات تؤهل للإنتاج (مفهوم ربط الثقافة بالإنتاج) وهو ما سيتم تأصيله مستقبلا على نحو كبير في حياتهم ، إلا إذا لم تكن لدى المجتمع مفاهيم سليمة حول الثقافة .

كما أن ممارسة هذه الأنشطة الإبداعية تساعد الأطفال على تنمية قدرتهم على الملاحظة الدقيقة ، والتأمل في الظواهر والأحداث والأشياء المحيطة ، ومن ثم إمكانات التوصل إلى تفسير هذه الأحداث وقراءتها قراءة سليمة وعلى نحو يسمح بإمكانات امتلاك المهارات المؤهلة لبناء نسق فكري علمي على نحو سليم ، فالأطفال الذين تتاح لهم فرصة

التعامل مع الأدب عبر أي وسيط ، يمتلكون القدرة على ملاحظة الأمور الأكثر دقة من غيرهم ، لأنهم يعيشونها عبر الأدب بخيالهم ووجدانهم ، ويتفاعلون معها تفاعلا إيجابيا ، ويمتلكون من خلالها مهارات لازمة تنتج على نحو طبيعي مصاحبة لما يفعلون ، مثل امتلاك القدرة على مهارات التفكير الأساسية اللازمة لكل فرد مثقف الآن ، وهي التفكير الإبداعي والتفكير الابتكاري والتفكير الناقد .

ولاخلاف بين القائمين بأمر التربية على أن التربية الإبداعية (الأدب وممارساته عبر التربية) تقوم بدور فاعل في تنمية التفكير الابتكاري والإبداعي عند الأطفال ، وذلك عبر وسائل مختلفة ، منها ما يتيحه الأدب من فرصة أمام الأطفال للتخيل ، ومن المعروف أن الخيال الإنساني مسؤول عن كل الأعمال الابتكارية في حياة البشر ، ومنها ما يتيحه من فرصة للمحاكاة (معروف أن المحاكاة تعد أحد منطلقات التطور التكنولوجي عامة ، فتطور الكثير من أجهزة التكنولوجيا ماهو إلا محاكاة للمخ البشري ومحاولات لتعديل مساراته ، وما يزال التطور في هذا المجال مستمرا) .

إن التعامل مع الأطفال بوصفهم يمتلكون نمطا ثقافيا على نحو ما يعد بداية التوجه السليم نحو بناء مجتمع فاعل ، ثم تأتي بعد ذلك إمكانات توجيه هذا النمط الثقافي وتنميته لصالح التوجهات والأهداف الكبرى ، وهنا تختلف نواتج المجتمعات تبعا لامتلاكها أهدافا وتوجهات من عدمه .

تربية الإبداع الأدبي:

هل في الإمكان تربية القدرة على الإبداع لدى الأطفال ؟

يمثل هذا السؤال منطلقا للبحث العلمي المعاصر وفي حقول معرفية مختلفة ، حيث تم تحديد ملامح عامة لسمات الإبداع وقدراته ، فيما يطلق عليه مهارات التفكير الابتكاري ،

والتي يعد من أهمها القدرات الثلاث التي توصل إليها جيلفورد[١] ، وهي الأصالة والطلاقة والمرونة ، وتعني الأصالة القدرة على إنتاج أفكار جديدة أو طريفة. أما الطلاقة فهي القدرة على إنتاج عدد كبير من الأفكار في وقت واحد ، وفي شكل تداعيات ، وتشير المرونة إلى القدرة التي يمتلكها المبدع في تغيير موقفه أو الانتقال بين الحلول .

من هنا فإن إمكانية تنمية مهارات التفكير الابتكاري يمكن أن تتحقق ، ومن ثم يمكن تنمية مهارات الإبداع الأدبي لدى الأطفال ، وإن كان هذا لاينفي أهمية وجود الشعلة الأولى أو الشرارة الأولى (الموهبة) ، ولكن الموهبة هي في ذاتها قدرة ، والقدرة كامنة في نفس كل إنسان منذ ولادته ، ولكنها قابلة للظهور من عدمه خضوعا للممارسات الإبداعية التي يتعرض لها الطفل في طفولته الأولى وسنوات تَشَكُّلِ وعيه، وهو ما يؤكد أمرا واحدا ، هو ضرورة تنمية المهارات الإبداعية عند الطفل ، وأولها مهارات التفكير الابتكاري ؛ أي القدرة على الابتكار في الأفكار والأحداث والأشياء ، وهي قدرة كامنة وموجودة بالفعل لدى الطفل .

ومن الملاحظ دوما في عمليات التنشئة داخل الأسرة أو في إطار المؤسسات التعليمية أن الإبداع في حد ذاته مهارة فردية ، يقوم بها الإنسان منعزلا ، وليس في سياق العمل الجماعي ، وقليل جدا ما كشف لنا التاريخ عن أعمال إبداعية مشتركة ، ومن ثم فإن تنمية مهارات الإبداع تحتاج في تنميتها إلى ما يطلق عليه التعلم الفردي ؛ أى الممارسة الفردية مع الطفل ، وليس في سياق جماعة .

---

١ – للاستزادة حول معايير جيلفورد يمكن العودة إلى : مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر – دار المعارف– القاهرة– ط٣– ١٩٧٠م ، وإلى : فهيم مصطفى: الطفل ومهارات التفكير في رياض الأطفال والمدرسة الابتدائية ، رؤية مستقبلية للتعليم في الوطن العربي– دار الفكر العربي– القاهرة – ٢٠٠١م.

ولكن التطور الحضاري والتقني الذي لحق العالم الآن ، غير من هذه الوظائف كثيرا ، إذ أصبح في الإمكان بفعل تطور وسائل العرض المعاصرة وهيمنة الإعلام ، أن يتم تنمية مهارات التفكير الإبداعي على نحو جماعي ، بمعنى أصبح في الإمكان أن يشترك أكثر من طفل في وسيط واحد (مشاهدة فيلم عبر شاشة ، أو قراءة قصة مصورة على الكمبيوتر ، أو الاستماع لحكاية عبر وسيط صوتي) ، كما أصبح في الإمكان قيام مجموعة من الأطفال مجتمعين بتأليف قصة أو حكاية أو نشيد أو الاشتراك في تأليف ورسم أحداث فيلم مثلا ، والحقيقة أن الأطفال يمتلكون القدرة أكثر من الكبار على الاشتراك في عمل جماعي ؛ لأن حساسيات العلاقات الاجتماعية فيما بينهم بسيطة ، وقابلة للذوبان بسرعة على عكس الكبار الذين تحكمهم في علاقاتهم بالآخرين عقائد وأعراف وتقاليد ومفاهيم قد تكون مغلوطة ، وقد تكون سليمة ولكن يمارسها كل واحد فيهم تبعا لبيئته وثقافته ومعتقده إضافة إلى رغبة كل واحد في النجاح منفردا ، ومن ثم فإن إمكانية الاختلاف تكون شديدة الوضوح ، ومن ثم إمكانية الاشتراك في عمل جماعي بينهم تكون غير هينة ، غير أن هناك دوما أعمالا أدبية يمكن استثنائها في حالات وظروف معينة ، منها اشتراك أكثر من فرد في كتابة سيناريو فيلم مثلا ، وأشهرها في تاريخ السينما المصرية فيلم الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي أنتجته آسيا عام ١٩٦٣م ، واشترك في كتابة السيناريو الخاص به نجيب محفوظ ويوسف السباعي وعبدالرحمن الشرقاوي والمخرج عز دين ذو الفقار .

والحقيقة أن المشكلة لدى الأطفال المبدعين ، لاتكمن في عدم قدرة الأطفال على الاشتراك في عمل أدبي جماعي ، فالأطفال يشتركون على نحو طبيعي أثناء ألعابهم اليومية في اختراع وتأليف ألعاب وحكايات وقصص ، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في واقع الفكر العربي ، الذي يميل دوما إلى الفردية وليس إلى العمل الجماعي ، وهو أمر يمكن للأدب أن يعالجه من خلال الإبداع الأدبي المقدم للأطفال أولا ، بحيث يفتح الباب على

مستوى الموضوعات الأدبية لأن تعالج الموضوعات القائمة على العمل الجماعي وليس البطل الوحيد في القصة ، والذي تظهر بقية الشخصيات فيها خادمة لسير الأحداث المتمحورة حول هذا البطل ، وفي هذا الشأن يمكن اعتماد مفهوم الورش الأدبية كنظام داعم لهذه الفكرة ، وهو نظام معمول به في كثير من بلدان العالم الآن ، والذي يعتمد على تنفيذ برامج تدريبية تعتمد نظام ورشة العمل ؛ أي قيام المتدربين أنفسهم بالعمل جماعيا وعلى نحو تطبيقي ، مع تقليل حجم ومساحة المحاضرة أو المتحدث الفرد .

أمر آخر يتصل بتنمية مهارات الإبداع ، وهو التعامل مع الموهوبين ، حيث تنقسم الدراسات حول هذا الأمر بين مؤيد لضرورة عزلهم ، ومؤكد على أهمية التعامل معهم في سياق دمجهم مع الجماعة والمجتمع ، وينطلق أنصار الدمج من أنه يضمن لهم المحافظة على مستوى التفاعل الاجتماعي الطبيعي بين أقرانهم من الأطفال العاديين ، وما يوفره ذلك من فرص تنافسية ، في حين يؤدي العزل إلى حرمانهم من هذا التفاعل ، ويعزز شعورهم بالتعالي والغرور، وقد يخلق ذلك لدى الأطفال العاديين الشعور بالدونية والغيرة والتبرم وعدم تكافؤ الفرص، علاوة على حرمان العاديين من فرص التنافس مع أقرانهم الموهوبين[٧].

أما أنصار مدخل العزل ، فيرون أن القيادات والكوادر تضيع عند دمجها مع العاديين ، وهو رأي يواجهه الكثير من المعارضة ؛ إذ إن العزل لم يحقق النجاحات المطلوبة منه ، وهو ما تدلل عليه التجارب التى اعتمدتها النظم التعليمية عبر تخصيص مدارس للموهوبين والمتفوقين أو تخصيص فصول مفردة لهم ، حيث تم التراجع عنه في كثير من وزارات التعليم التي أغلقت مدارس الموهوبين بعد سنوات .

---

[٧] - ينظر في ذلك : عبد المطلب أمين القريطي : سيكولوجية ذوي الاحتياجات الخاصة – دار الفكر العربي – القاهرة – ٢٠٠١م .

من هنا فإن دمج الموهوبين في سياق الجماعة هـو الاتجـاه الأفضـل ، وإن كانـت هنـاك مشكلات أساسية تظل قائمة ، وتتمثل في برامج الرعاية ذاتها وكيفية ملاءمتهـا للأطفـال أنفسهم وطبيعتها التي يجب أن تدور حول الطفل منطلقة من خبراته واهتماماته هو لا من خبرات الكبار وما يرونه هم ، المشكلة الثانية تتمثل في شخصية المشرف أو القائم على أمر تربية الأطفال والمواصفات المتطلبة فيه ، ومدى إلمامه بكيفية تشكل الـوعي الثقـافي لـدى الأطفال.

تشكل الوعي الثقافي لدى الأطفال:

استطاعت الدراسات في مجال علم النفس التوصل إلى تحديد ورصـد السـمات العامـة لمراحل نمو الأطفال ، على النحو التالي[٨] :

- **أولا- مرحلة الطفولة المبكرة رياض الأطفال (وتشمل من سن الثالثة إلى الخامسـة) ، وتتميز هذه المرحلة بخصائص من أهمها :**

أنها مرحلة النمو السريع فى معظم النواحي البدنيـة والنفسـية والعقليــة والاجتماعيـة واللغوية ، ويميل الطفل فيها إلى كثرة الحركة والمحاولات المستمرة لتعرف البيئة المحيطة، والنمو السريع فى اللغة والمفردات ، كما أنهـا مرحلـة تكـوين المفـاهيم الاجتماعيـة وتعلـم التفريق بين الصواب والخطأ ، والخير والشر ، وتكوين الضمير وبداية نمو الذات ، وفيهـا

٨- يمكن العودة في ذلك إلى مراجع علم النفس التربوي العديدة ، ومنها :
- فؤاد أبو حطب ، وآمال صادق : علم النفس التربوي – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٨٠م .
- محمد البيلي ، وعبدالقادر العمادي ، وأحمد الصمادي :علم النفس التربوي وتطبيقاته – مكتبة الفـلاح – العين– ١٩٩٨م.
- محمود عبد الحليم منسى، وسيد محمود الطواب : مدخل إلى علم الـنفس التربـوي – مكتبـة الأنجلـو المصرية – القاهرة – ٢٠٠٢م .

يستعين الطفل باللغة النامية لديه وخبراته المتزايدة فى تكوين مفاهيم تتضمن المأكولات والمشروبات والملبوسات من البيئة الشخصية والمحيطة ، وتزداد قدرة الطفل على الفهم وتزداد قدرته على التعليم من الخبرة والمحاولة والخطأ .

ويكون الأطفال فى هذه المرحلة مولعين باللعب والأغانى والأناشيد والكلمات المنغومة والقصص ، أما التفكير فيدور بعامة حول الذات ، مع قليل من التفكير الرمزي الخيالي غير المنطقي .

وبنهاية هذه المرحلة يفضل الطفل نهائيا إحدى اليدين فى إمساك الأشياء والأقلام، وهنا يمكن تنمية الاستعداد للكتابة برسم خطوط مستقيمة وخطوط منحنية ودوائر، وتقليد شكل الحروف وتنمية التآزر الحركي.

- **ثانيا- مرحلة الطفولة المتوسطة (وتشمل من سن السادسة حتى الحادية عشر)، وتتميز هذه المرحلة بخصائص من أهمها :**

تتسع فيها الآفاق العقلية المعرفية ، وتعلم المهارات الأكاديمية فى القراءة والكتابة ، ويميل الأطفال إلى الفردية ، وزيادة الاستقلال عن الوالدين ، وتظهر قدرتهم على التمييز بين الحروف الهجائية وتقليدها ، وينمو التذكر ويتحول من التذكر الآلي إلى التذكر والفهم، ويتمكن الطفل في هذه المرحلة من حفظ الأغنيات والأناشيد والكلام الموقع بشكل عام ، فيستطيع حفظ من ١٠ : ١٥ بيتا من الشعر، كما أنه ينمو لديه التفكير من تفكير حسي إلى تفكير لفظي مجرد ، وينمو التخيل من الإيهام إلى الواقعية والابتكار والتركيب وينمو الاهتمام بالواقع والحقيقة ، ويستطيع الطفل أن يفهم الطرائف والنكت ، وتزداد المفردات اللغوية بنسبة ٥٠٪ من ٢٥٠٠ كلمة إلى حوالى ٥٠٠٠ كلمة ، ويتعلم المهارات اللازمة لشئون الحياة ويتعلم المعايير الخلقية والقيم وتتكون الاتجاهات والاستعداد لتحمل المسئولية ، وضبط الانفعالات ، وتعتبر هذه المرحلة أنسب المراحل

لعملية التطبيع الاجتماعى ، تزداد القدرة على تعلم ونمو المفاهيم ويزداد تعقدها وتمايزها وموضوعيتها وتجريدها وعموميتها وثباتها مثل مفهوم العدل والظلم والصواب والخطأ ، ويتعلم الطفل معايير الخير والشر والقيم الخلقية ، ويزيد لديه حب الاستطلاع وتكثر أسئلته عما يدور حوله من ظواهر، ومن خلال الإجابات التى يستمع إليها يختزن الكثير من المعارف والمعلومات.

وفي هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يفهم علاقات السببية إذا شرحت له بأسلوب مبسط ولهذا من الممكن أن تتغير أسئلته عن الشيء من : ما هذا ؟ إلى: لماذا ؟ وبعد التاسعة تزيد قدرته على الحكم والتعميم كما تزيد قدرته على النقد، كما أن الطفل يتعلم في هذه المرحلة عن طريق العمل بشكل أفضل من الشروح اللفظية.

مصادر ثقافة الأطفال:

لاشك أن الأطفال الذين يتعرضون لممارسات أدبية على نحو ما يكتسبون العديد من المهارات قياسا إلى الذين لا يتعرضون لأي نوع منها ، فالأطفال مثلهم مثل الكبار يحتاجون إلى المعلومات والمعارف والخبرات التي تشكل في إجمالها ما يمكن أن يطلق عليه الثقافة ، وإن ظل عنصر الإنتاج معطلا بالمفهوم السليم لكلمة ثقافة[٩] ، ولكن تظل المكونات البدائية للثقافة متحققة وتمثل احتياجا أساسيا للأطفال ، وتتعدد المصادر التي يمكن للأطفال استقاء ثقافتهم منها ، والتي تتدرج بدءا من الأسرة ، ثم الجيران ، فدور العبادة ، والمدرسة ، والأقران ، ووسائل الإعلام ، وأدب الأطفال المقروء والمسموع والمرئي ، ثم تأتي أخيرا الوسائط التكنولوجية لبث الثقافة .

٩ – تطور مفهوم الثقافة من مجرد كونها مجموعة من المعارف والمفاهيم إلى كونها ممارسات سلوكية ، ليرتبط حتميا بالإنتاج .

وإن كانت هذه المصادر لايمكن الفصل بينها على مستوى الاستقبال ، كما أنها تتداخل على مستوى التبادل التقني فيما بينها ، فالأسرة في بثها للنمط الثقافي تستعين بالقصص والحكايات والأمثال والحكم والأوامر والنواهي ، والسلوكيات الفعلية التي يقومون بها عن قصد أو من دون فيكتسبها الأطفال .

وتعد الأسرة هي المحك الأول والأهم على الإطلاق الذي يكتسب منه الطفل معارفه، ويبدأ وعيه الثقافي في التكون ، تأثرا بالنمط الثقافي لأسرته ومستوى أفرادها التعليمي ودرجة وعيها الثقافي ووعيها بكيفية ودور وأهمية تربية الأطفال وكيفية تشكل الثقافة لديهم ، وبخاصة فيما يتعلق بتنمية مهارات التفكير وملكات الإبداع ، فمثلا الاستعداد لتعلم القراءة يعد مهارة من مهارات التربية المعاصرة يمكن تنميتها ، غير أن هذا يحدث فقط في مراحل تشكل الوعي الأولى ، أي مرحلة الطفولة المبكرة ومن قبل الأسرة التي تمتلك وعيا سليما بكيفية تنمية هذا الاستعداد لديهم ، وإلا تحول لاتجاه سلبي نحو القراءة وكل ما يتعلق بها .

وفي هذا الصدد يوصى بأهمية توفير مصادر قرائية على نحو ما داخل المنزل ، ولو عبر مجلات وكتيبات ، كما يوصى بضرورة اختيار النماذج القرائية المحببة إلى قلب الأطفال ، والتي تثير دافعيتهم نحو القراءة ، مثل البدء بالكتب المصورة ذات الكلمات القليلة ، والمعالجة لموضوعات مشوقة مثيرة لاهتماماتهم .

ثم يأتي دور المدرسة في تنمية الوعي الثقافي من خلال أنماط التعليم المتعددة التي تطرحها ، سواء عبر المنهج الرسمي ، أو عبر المنهج الموازي (ما يكتسبه المتعلم من البيئة المدرسية خارج حدود المقررات الدراسية)، وهنا تأتي أهمية اعتماد المدرسة على تنويع مصادر التعلم لديها ، ومواكبة التطورات العالمية في مجال التثقيف ووسائله وأدواته ، وفي علوم التربية كثير من الأدبيات المحددة لهذه القضية بأبعادها ، والتي تنظر للمدرسة

بوصفها مؤسسة اجتماعية ثقافية لها دور فاعل في إعداد الفرد ليقوم بدوره الثقافي مستقبليا.

ويأتي دور أدب الأطفال باعتباره مصدرا من مصادر تكوُّن الثقافة لديهم ، وبوابة للدخول إلى عوالم لا يمكن الولوج إليها من غير الأدب ، وبخاصة في الأمور المتعلقة بالأخلاق والمثل والقيم والعادات والتقاليد والوعي بالمشاعر ، واكتشاف الذات وتكوين صورة عن الآخرين ، والمعارف المتعلقة بالكون والعلوم التجريبية ، وغيرها من المعارف التي تمثل المواد الأولية للثقافة (المعرفة) والتجسيد المعرفي لها .

وهكذا تتعدد مصادر ثقافة الطفل ، ولا تتوقف عند حدود ما تم رصده مسبقا من أسرة ومدرسة ودور عبادة، وغيرها مما يمكن أن نتخيله نحن الكبار ، فكل خبرة يمر بها الطفل في حياته تضاف إلى رصيده المعرفي ومن ثم الثقافي ، وكل مشهد يتلقاه الطفل في حياته يدخل في هذا السياق ، وهو ما يفتح الباب أمام ثقافة الطفل على نحو لايمكن حصره ، ويكفينا في هذا السياق تأمل ردود أفعال الأطفال نحو ما يقرأون أو يشاهدون عبر الشاشات ، وأحكامهم النقدية حول الشخوص ، واستباقهم الأحداث وإعادة سردها بطريقتهم ، واختراعهم لأغنيات على غرار ما استمعوا إليه ، أو على أدنى تقدير إيجاد المترادفات والبدائل لما يسقط من ذاكرتهم أثناء الغناء والدندنة ، وهنا تأتي أهمية ودور الأدب في تنمية الإبداع ، من خلال ترك فجوات في نصوص أدب الأطفال ليعيدوا ملئها ، وهم قادرون على ذلك بطريقتهم المبدعة في رؤية الأشياء بخيالهم وليست بصورتها التي هي عليها ، ويكفينا هنا النظر فيما يرسم الأطفال لنكتشف ذلك ، حين يرسمون الأرجل المختفية من الحيوان ، وحين يصورون الأوجه الخافية من الأشياء .

تكنولوجيا المعلومات وتثقيف الطفل :

تمثل المعلوماتية وتكنولوجيا المعلومات إحدى أهم الوسائل المعاصرة للتثقيف ، وكلاهما يعتمد على الآخر ويوظفه ، بما أدى إلى تطور مطرد ومتلاحق ، اعتمد في إجماله على الاختزال في كل شيء : اختزال المسافات ، واختزال الزمن ، واختزال الكم والمساحة، واختزال الجهد والمهارات والإمكانات والوسائط والبدائل، وغيرها من المفاهيم التي حيرت البشرية عبر تاريخها (الخفة والحركة والزمن) .

وربما لايعد من غريب الأمر أن يستطيع الأطفال التواصل مع أدوات التكنولوجيا على نحو يتفوقون فيه على الكبار ، وهو ما يفسره البعض على أنه منتج قريب العهد بهم يعبر بشدة عن أنماط وتشكلات الحياة في زمنهم ، وإن كنا نرصده من منظور الحرية التي يمتلكها الطفل في تعامله مع التكنولوجيا ، حيث لايفرض عليه أحد ما يجب عليه عمله ، وإنما يصبح هو المتحكم والقائد ، والمبدع والمفكر ، ويمكن هنا ملاحظة طفل يجلس أمام الكمبيوتر أو يستخدم الإنترنت في تصفح مواقع أطفال ، حيث يصبح هو المتحكم الأوحد والقائد والباحث والمتأمل والمجرب ومتخذ القرار والمتحمل لعواقب قراراته، وهو ما يساعد في بناء شخصيته على نحو لايتوفر لمن لايمر بهذه الخبرات ، ويمنحه الحرية التي تسمح له بأن يمارس عمليات التفكير ويعايشها معايشة تسمح له بأن يتتبع معطياتها ويحاول التدخل في تشكيلها على قدر استطاعته ، وهي استطاعة متطورة ونامية على الدوام .

كما يمكن تفسيره أيضا من منظور الملكات التي يمتلكها عقل الطفل من مثابرة واهتمام بالتفاصيل وقدرة على المواصلة وسرعة في التعلم وتنظيم في العقل وقدرة على ربط الدقائق والتفاصيل ونسجها في سياق واحد ، ولَمٍّ لشتات الأمور وجمعها ، واهتمام بالمتخيل الغائب من خلال حضوره الغائم ، فالطفل مفكر صغير ، يتأمل كل ما يمر به أو

عليه ، فعلى سبيل المثال قد يلاحظ بعض الآباء كثرة وسرعة استهلاك طفلهم للألعاب ، إذ غالبا ما تتهشم من (نبشه) فيها ، والحقيقة أنه على نحو فطري يسعى لاستكشاف أسرار تشغيلها ، ومعرفة دقائقها .

إن التثقيف هنا – عبر التكنولوجيا – لايصبح مجرد معارف ومعلومات ينبغي على الطفل اختزالها لاستدعائها عند الحاجة ، وإنما يصبح عمليات استيعاب وإنتاج ، وهو المفهوم المعاصر والمقيم للثقافة .

وفي الإجمال فإن هذا التطور التقني يحتم علينا ضرورة تغيير المداخل التربوية والتعليمية التي يتم من خلالها التعامل مع الأطفال ، بوصف التربية[١٠] أحد المداخل الأساسية للثقافة والتثقيف ، الأمر الذي يستوجب أيضا إكساب الطفل مهارات لم تكن في الحسبان من قبل ، مثل مهارات التعلم الذاتي ، والتعلم المستمر مدى الحياة ، وتعديد مصادر التعلم والتدريب على كيفية استخدامها وتوظيفها ، وغيرها من المهارات التي طرحتها وتطرحها التكنولوجيا في كل حين ، وهو ما غير الغايات الأساسية للتربية من كونها عملية تعليم إلى عملية تعلم ، ومن كونها معرفة إلى تنمية مهارات ، ومن كونها اختزال إلى توظيف .

[١٠] – ليس المقصود هنا التربية التي يخضع لها الطفل في المؤسسات التعليمية والمدارس والمعاهد ، وإنما المعني به هو بدء التربية في محيط الأسرة الصغيرة التي ينشأ فيها الطفل .

الفصل الثالث : أدب الأطفال

مفهومه – تقنياته - مصادره